الله عملكم ورسوله والمؤمنون » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه » وقال تبارك وتعالى : « والعصر إن الإنسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » .

وهكذا أمر الله تعالى بالتفكير الحر السليم والعلم السامى النافع والعمل الطيب المثمر . لأنه بذلك يهتدى الإنسان إلى الله ويعرف نفسه كما أنه شاد منار العلم والحضارة والمدنية وأنتج ما أنتج من ألوان العلوم والآداب والفنون . وطار فى الجو وصعد إلى القمر وغاص فى البحر وذلل البر لخدمته .

العصر الذهبى للعدالة الإنسانية

يحدثنا التاريخ قديمه وحديثه أن الدماء الغزيرة التى سفكت ظلما وعدوانا والجرائم والمظالم التى ارتكبت والرذائل والآثام التى اقترفت والأموال التى نهبت والأرزاق والأعناق التى قطعت بالظلم والباطل كانت من فعل الذين لم يعرفوا الله ولم يتقوه ، ويحدثنا كذلك أن مبادىء الحق والعدل والفضائل الإنسانية لم تنتشر ولم تزدهر إلا على أيدى الذين يؤمنون بالله حقا وينفونه فهم يجتنبون المفاسد والآثام كما يجتنبون الأمراض والأوساخ فهم رعاة الفضائل

والأخلاق والمبادىء الإنسانية وحماتها ودعاتها وجندها المخلصون وأبناؤها الصادقون ويشهد على ذلك تاريخ المسلمين الفاتحين وتاريخ الاستعمار القديم والحديث . فالمسلمون الفاتحون عاملوا الشعوب التى دخلوا بلادها بالرحمة والعدل والإخاء ولم يستعمروها ولم يتسلطوا عليها ، ويدل على ذلك ما دخل فى الإسلام من شعوب وأقوام وما انصهر فى بوتقة العروبة والإسلام من أمم ودول . وذلك يرجع إلى أنهم كانوا حملة رسالة سماوية ودعاة إلى الأخوة الإنسانية فى ظل الإسلام الحنيف ولم يكونوا مستعمرين مستغلين يسلبون الشعوب حرياتها واستقلالها وينهبون ثرواتها وخيراتها ويمتصون دماءها وحيويتها . لذلك يعتبر بحق عصر المسلمين الأوائل العصر الذهبى للعدالة الإنسانية .

أما المستعمرون القدامى والمحدثون من فرس ورومان وصليبيين ومغول وأروبيين فقد استعمروا الشعوب الضعيفة واستعبدوها وقطعوا أعناقها وأرزاقها واغتصبوا أقواتها وأموالها وسفكوا دماءها وأزهقوا أرواحها ، وذلك لأنهم كانوا مستعمرين ماديين ملحدين تدفعهم إلى ذلك شهوة الجشع والطمع وحب السيطرة والتسلط دون وازع من ضمير أو دين ، وهذه هى حال كل من لا يعرف الله ولا يتقيه ولا يرتبط به فى كل زمان ومكان ، وهذه

الظاهرة الحيوانية الهمجية اللاإنسانية ما تزال بارزة ومتفشية فى العصر الحاضر عصر العلم والحضارة والمدنية وعصر الأمم المتحدة التى قامت لحفظ حقوق الإنسان فى الحياة الحرة الكريمة، وتتجسد فى تشريد الشعب العربى الفلسطينى من وطنه وديارة فلسطين على يد الصهيونية العالمية والاستعمار الغربى .

لذلك كان من الخير للإنسان ومن مصلحة البشرية جمعاء ربط الإنسان بخالقه وربه الله سبحانه وتعالى بالإيمان والعبادة والتقوى والعمل والسلوك .

فالذى يعرف الله ويتقيه يعرف الحق والعدل والرحمة والذى لا يعرف الله ولا يخافه لا يعرف سبيل الحق والإنصاف والإنسانية . ولا يؤمن جانبه فلا أمان ولا اطمئنان لمن لا أمان له كما يشهد بذلك واقع الحياة البشرية فى كل زمان ومكان . والمدخل إلى ملكوت الله تعالى وتذكرة الدخول للإسلام شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإذا ما دخل المرء إلى ملكوت الله بالشهادتين أخذ بوسائل التقرب إلى الله وطرق التعبد له من صلاة وصيام وزكاة وحج . على أن العبادات كلها ليست غاية فى حد ذاتها ولا الهدف من نشر الدين كله فالغاية القصوى من الدين كله هى بناء الإنسان المؤمن الطيب الصالح الذى لا يقـــول ولا يفعـــل إلا خيراً وحقاً وعدلا ، وبناء المجتمع الإنسانى

الأكبر الأمثل الذى يتعارف فيه الناس جميعاً ويتعايشون سلمياً فى ظلال الأخوة والصداقة والمحبة على صعيد الإيمان والتقوى والعدل . ويتجلى ذلك مشرقاً فى قوله تعالى : « وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » . وفى قوله جل شأنه : « يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون » .

وفى قول الرسول محمد عليه الصلاة والسلام : « من لم تنهه صلاته فلا صلاة له » وقوله صلى الله عليه وسلم : « من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه » .

وقد أجمل رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم حكمة العبادات كلها فى هذا الحديث الشريف : « أتدرون من المفلس؟ قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع ، فقال : إن المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتى وقد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ، فيعطى هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح فى النار » .

ولا غرابة فى ذلك فالله تبارك وتعالى فى غنى عن الناس فهم الفقراء إليه ، لذلك أرسل لهم الرسل والأنبيـــاء لهدايتهم

ومصلحتهم وخيرهم فى الدنيا والآخرة ولم يرسلهم لمصلحته هو جل وعلا .

ولقد اتبع القرآن الكريم أسلوب التبشير والترغيب وأسلوب الإنذار والترهيب لجذب الناس إلى طاعة الله واتباع شريعة السماء تمشياً مع عقليات البشر وطبائعهم المختلفة . وفى ذلك كل الخير والسعادة للإنسان فى الدنيا والآخرة . وفى معصية ومخالفة شريعته كل الضرر والشقاء فى الدارين . فمن آمن بالله واتقاه فله ثواب إيمانه ومن كفر به وعصاه فعليه وزر كفره وعصيانه كما قال تعالى: « من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها » . وقال أيضاً عز وجل : « يأيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل » .

وهكذا لا تكون العبادات وحدها مقياس الإيمان والصلاح والتقوى فالمقياس الصحيح نراه فى هذا الحديث الشريف : « ليس الإيمان بالتمنى ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل » .

وذلك يعنى أن العمل الصالح هو ثمرة العبادات كلها من صلاة وصيام وزكاة وحج . فلا معنى ولا ثواب لعبادة لا تصحبها تقوى الله وإقبال على الخير والفضيلة وإدبار عن الشر والرذيلة .

ولكى يستدل الإنسان على وجود الله ويرى ببصره وبصيرته آيات وحدانيته وعظمته وقدرته حثه الله تعالى على التفكر والتأمل فى خلق السموات والأرض وفى نفسه فقال جل شأنه : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » .

فأثار انتباهه إلى مصدر خلقه وحياته وأن الله خلق جده الأول آدم من طين وصلصال ثم نفخ فيه من روحه وجعله فى أحسن تقويم وفضله على كثير من مخلوقاته كما قال الله تبارك وتعالى : « الذى أحسن كل شىء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين . ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين، ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون » سورة السجدة (آية ٧ و ٨ و ٩) .

ثم ذكره بأطوار خلقه بعد خلق المنبع والمصدر والأصل كى لا ينسى الله، فقد خلقه الله من نطفة من ماء مهين من صلب الرجل ثم مضغة ثم علقة ثم جنيناً فى رحم الأم ثم خرج من بطن أمه إلى الوجود طفلا مزوداً بالسمع والبصر واللسان والعقل واليدين والرجلين والأنف والفم وسائر الأعضاء ، ثم هداه النجدين وغمره بالنعم التى لا تعد ولا تحصى وسخر البر والبحر والجو لخدمته ومنفعته ولم يدعه وشأنه وحيداً فى الأرض يسير حائراً تائهاً بل

أنزل له الكتب السماوية والرسل والأنبياء ليهتدى إلى الله ويتبع سبيله وليعرف أن اتباع سبيل الله خير له وأبقى فى الدنيا والآخرة من اتباع سبيل غيره . لذلك حذره من مغبة الإلحاد والشرك بالله والبعد عن شريعته واتباع شهوات النفس الأمارة بالسوء وركوب أهوائها والانحراف فى تيار الغرائز الحيوانية ، وبين له حسنات التقيد بالأخلاق والآداب والفضائل السماوية فنبذها يجر المرء إلى مزالق السقوط ومهاوى الردى .

وكما ذكره بأصله ومنبع حياته وأطوار خلقه ذكره أيضاً بمصيره ونهايته فأينما كان الإنسان وأنى ذهب فمرجعه إلى الله خالقه ليسأله عن أعماله فى الدنيا ويحاسبه عليها كما قال جل وعلا : « كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون » وقال : « إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم تعملون » . ولكى لا يهيم الإنسان على وجهه فى حب الدنيا ويتوه على مركب البطر والغرور شده الله الله تعالى إليه بحبال الموت ولجمه بلجام المنون فهو دائماً على حافة الموت ومعرض للوفاة فى كل وقت والموت لا يفرق بين صغير وكبير . قال تبارك وتعالى : « وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت » .

وقال شاعر حكيم :

يسبح المرء فى محيط الأمانى والمنايا منه كحبل الوريد